

Abstract:

The documentary, or as it is called the "cinema of truth" or "reality cinema", is an important television material, the documentary works to document the ink and knowledge derived from real life, tested and selected and rearranged in an artistic way that reflects the view of the director or the film's owner.

The documentary performs a number of important functions in the field of education, advertising, historical recording and propaganda, the most important of which is the media function, which is considered one of the important functions in the field of media. All fields: "Documentary films are one of the methods of mass communication which is based on providing people with the facts, the right news and the right information ...".

Keywords: Information function; Documentary films; Technical standards; Cinema; Documentary cinema.

مقدمة:

إن المتتبع لتاريخ السينما في العالم يلاحظ أنها قد بدأت بداية تسجيلية أو توثيقية، حين صور الأخوان لوميير خروج عمال من المصنع، وصديقاً يلتهم تفاحة.

بعد ذلك تنوّعت الأفلام التسجيلية، ليس فقط في موضوعاتها، بل في مناهجها وتوجهاتها، وعُرِضت أفلامٌ وصفية وتحليلية، إضافة إلى أفلام عن الإعلام، وأخرى عن البسطاء.

وعُرِضت أفلام عن التنمية، وأخرى في النقد الاجتماعي، وفي الوقت نفسه ترسّخت للأفلام التسجيلية خصائص عامة، بداية من منهجها في المعيشة والملاحظة، ثم الإبقاء، وانتهاءً باكتشاف الجنس البشري، مروراً بميدانها، وهو الحياة الواقعية، ومادتها حياة الإنسان، يلتقط المخرج فكرة، يصيغها في نسق من مفردات الواقع، يشكلها في بناء فيلمي يعبر عن وجهة نظره، يراعي وحدتي الحدث والزمان بأسلوب فني خلاق.

وللفيلم الوثائقي أهمية ثقافية وتعليمية بالنسبة للمجتمعات، فباعتراره ذو طابع غير روائي فهو لا يعتمد على القصة الدرامية أو الخيال السينمائي، بل يتخذ مادته من واقع الحياة من خلال نقل الأحداث مباشرة كما هي، دون تحريف أو تزييف، وبشكل حيادي وموضوعي مرتكز على الوثائق موثوقة المصدر، وتبرز أهمية الفيلم الوثائقي في كونه يبين بالصورة والتاريخ والشهادة الحيّة، كل ما حدث ويساعد في التّسجيل التّاريخي والتوثيق الحقيقي لكل ما يحدث.

تتناول هذه المداخلة العلمية الوظيفة الإعلامية في الأفلام الوثائقية، حيث سنحاول شرح هذه الوظيفة من خلال تطبيقها على جملة من المعايير الفنية المرتبطة بالسينما الوثائقية التاريخية.

1. عموميات حول الفيلم الوثائقي:

تأخذ الأفلام الوثائقية في يومنا هذا حيزاً كبيراً من اهتمامات القنوات التلفزيونية فضلاً عن القنوات المتخصصة لعرض الأفلام الوثائقية وذلك نظراً لأهمية التوثيق في حياتنا، فما هو الفيلم الوثائقي؟

1.1 مفهوم الفيلم الوثائقي: يعني في الاصطلاح الفرنسي Film

Documentaire، أن الفيلم وثيقة عن المكان، أو الحدث، أو الشخص الذي يتناوله، ولهذا يفضل البعض ترجمته إلى الفيلم الوثائقي بدلاً من الفيلم التسجيلي، أما المفهوم الإنجليزي لهذا النوع من الأفلام التسجيلية الوثائقية Documentary Film فلا يكفي الفيلم بتسجيل الحقيقة وحدها، وإنما يضيف إليها الرأي أيضاً¹.

الساري بين المهتمين بدراسة السينما الوثائقية أن مصطلح «فيلم وثائقي» ورد لأول مرة سنة 1926 على لسان المخرج الوثائقي البريطاني "الاسكتلندي" جون غريرسون John Grierson، في مراجعة له لفيلم "موانا" Moana لروبرت فلاهرتي Robert Flaherty، الذي يعد أحد أهم السينمائيين الوثائقيين، حيث كانت قناعات غريرسون بالنسبة للسينما الوثائقية تقول:

- إن قابلية السينما لمراقبة الحياة، يمكن استخدامها في شكل فني جديد.
 - إن «الممثل» الطبيعي، و«المشهد» الطبيعي، أكثر قدرة على استدراك كنه العالم الحديث، من الممثل الروائي والمشهد الروائي.
 - إن المشاهد المأخوذة من «الواقع الخام» حقيقية أكثر من المشاهد الممثلة روائياً.
- وقد لاقى تحديده للوثائقي بأنه تفسير خلاق للواقع قبولاً في ذلك الوقت، مقابل تحديد السينمائي السوفيتي دزيغا فيرتوف، بأن الحياة يجب أن تؤخذ كما هي، خلصة.
- من جهته حدد المخرج الأميركي بير لورنتز Pare Lorentz الفيلم الوثائقي بأنه «فيلم يصور الواقع بشكل درامي»².

وأصدر الاتحاد الدولي للسينما التسجيلية في عام 1948، تعريفاً شاملاً للفيلم التسجيلي جاء فيه: "كافة أساليب التسجيل على فيلم لأي مظهر للحقيقة، يعرض إما بوسائل التصوير المباشر، أو بإعادة بنائه بصدق، وذلك لحفز المشاهد إلى عمل شيء، أو لتوسيع مدارك المعرفة والفهم الإنساني أو لوضع حلول واقعية لمختلف المشاكل في عالم الاقتصاد، أو الثقافة، أو العلاقات الإنسانية"³.

وعادة ما تصوّر الأفلام الوثائقية الأحداث الواقعية بدون تعديل أو تغيير، فهي وسيلة فعّالة لصياغة الواقع وإعادة تشكيله وقولبته بما فيه، وهذا ما ذكرته باتريشيا أوفرهايدي Patricia Overhaydy في كتابها الفيلم الوثائقي قائلة: "الأفلام الوثائقية أداة تواصل مهمة في تشكيل الواقع، بسبب مزاعمها بأنها تجسد الحقيقة، فدائماً ما يكون للأفلام الوثائقية أساس في الحياة الواقعية، وتزعم بأنها تخبرنا بشيء يستحق المعرفة"⁴.

2.1 تاريخ الفيلم الوثائقي: كانت البداية الحقيقية للفيلم الوثائقي على يد روبرت

فلاهيرتي Robert Flaherty الذي توجه عام 1920 إلى بلاد الاسكيمو ومكث هناك 16 شهراً، قام فيها بتصوير حياة رب عائلة وهو يصارع من أجل البقاء في فيلم وثائقي مدته 76 دقيقة بعنوان "نانوك الشمال Nanook of the North"، ولم يكن هناك تعليق صوتي، فقط كانت هناك كتابة مصاحبة للصور، وقد وضح الفيلم قسوة الحياة في تلك المنطقة، وكذا التكافل الذي يميز شعب الاسكيمو، وكان أول من استخدم مصطلح الفيلم الوثائقي هم الفرنسيون حين أطلقوه على الأفلام السياحية⁵.

في عام 1926 قام رائد السينما الوثائقية "جون غريرسون" بتعريف مصطلح السينما الوثائقية لأول مرة في مقال نشر بجريدة New York Sun بأنه "المعالجة الخلاقة للواقع"، حيث ميز بين الفيلم ذو مستوى أعلى ومستوى أدنى:

➤ **المستوى الأعلى:** وهو الذي يقتصر عليه مصطلح "فيلم وثائقي" لتلك النوعية من الأفلام التي تتضمن مغزى سياسي، وتقدم معالجة خلاقية لموضوعاتها وتعكس وجهة نظر المخرج.

➤ **المستوى الأدنى:** وهو الذي يشتمل على بقية الأنواع السينمائية والتي تعكس بدورها الواقع دون تقديم رأي أو تحليل⁶.

من خلال هذا التعريف فتح "غريرسون" آفاقاً واسعة أمام المخرجين كي يعبروا عن ذلك الواقع بما فيه من أحداث ومشكلات وقضايا وأماكن وأشخاص بشكل مؤثر وفني، بحيث لا يجب أن يقتصر مخرج الفيلم على مجرد نقل الواقع تسجيله بالكاميرا السينمائية، بل يبحث المخرج فيما حوله ويحدد عناصر موضوعه مرتباً إياها، بحيث تؤدي في النهاية إلى نتيجة معينة والتأثير المقصود بالنسبة للمشاهد المستهدف.

3.1 الخصائص الكلاسيكية للفيلم الوثائقي: يحدد غريرسون خصائص أو قواعد لا بد

من أن تتوفر في أي فيلم تسجيلي لكي يصبح حقيقياً وهي القواعد الأساسية للسينما الوثائقية:

◀ اعتماد الفيلم الوثائقي على التنقل والملاحظة والانتقاء من الحياة نفسها، فهو لا يعتمد على موضوعات ممثلة في بيئة مصطنعة كما في الفيلم الروائي وإنما يصور المشاهد الحية والوقائع الحقيقية، كذلك يُعايش الأحداث أو الأشخاص أو الأماكن التي تشكل محور الفيلم.

◀ مادة الفيلم الوثائقي تُختار مباشرةً من الطبيعية الحقيقية بكل مكوناتها "أشخاص، حيوانات، نباتات، ظواهر، أحداث..."، أي من واقع المكان دونما تأليف أو محاكاة، فهو يرفض المناظر الصناعية المفتعلة داخل الاستوديو، وبذلك تكون موضوعاته أكثر دقة وواقعية من المادة الممثلة.

◀ تنظيم المادة الواقعية وتقديمها بأسلوب فني، أي معالجتها وتناولها بشكل فني خلاق.

◀ أشخاص الفيلم الوثائقي يُختارون من الواقع الحي، فلا يعتمد على ممثلين محترفين فهو يصور ويقدم الواقع والحياة بأشخاصها الحقيقيين وطبقاً لأدوارهم الحقيقية في الموضوع المطروح.

◀ التفرقة بين الوصف المجرد والدراما أي التمييز بين الأسلوب الذي يقتصر على وصف القيم السطحية للموضوع والأسلوب الذي يكشف عن حقائقه وتفاصيله بطريقة فعالة.

◀ يتسم عادة بقصر زمن العرض، حيث يتطلب درجة عالية من التركيز أثناء مشاهدته، ومن الملاحظ دائماً أن يكون إنتاج الأفلام التسجيلية لا يزيد في أغلبها عن 20 - 30 - 45 دقيقة على أكثر تقدير، وذلك نظراً لأن إنتاج مثل هذه الأفلام يكون موجهاً إلى نوعية معينة من الجماهير، يحمل لها الأهداف الخاصة.

◀ يخاطب في العادة فئة أو مجموعة مستهدفة من الجماهير، وأثناء الإعداد لإنتاج فيلم من الأفلام التسجيلية يُحدد الجمهور المستهدف لهذا الفيلم، وعلى أساس خصائصهم يكون أسلوب المعالجة، وحجم ونوعية المعلومات، وكيفية تناولها، وتقديمها، والمستوى اللغوي للتعليق المصاحب للفيلم، أو للحوار القائم بين شخصياته.

◀ يتسم بالجديّة وعمق الدراسة التي تسبق إعداده، وشعار الفيلم التسجيلي: " السينما رسالة، وفن، وعلم"⁷.

وعلى الرغم من أن هذا النوع من الأفلام، يستخدم المناظر والقصص الحقيقية، والناس الحقيقيين، إلا أنه يملك مقومات هائلة للإبداع الفني تختلف كل الاختلاف عما هو سائد في مجال السينما الروائية، فالدراما في الفيلم التسجيلي هي الدراما الحية، الموجودة في الواقع، بكل ما يحفل به من صراعات وتناقضات ومواجهات وتكيف، وتبقى مهمة إبراز ذلك، أو إمكانية الوصول إليه والإحساس به، مرهونة بالفنان الذي يعمل في هذا المجال، ومدى ما يملك من إمكانات وملكات ثقافية وإبداعية.

فهذا الفنان، الذي يتخذ مادته من المدن والشوارع والأزقة والمصانع والأسواق والقرى الصغيرة جداً والنائية، مطالب بأن يقدم ذلك في إطار من الجاذبية والإبداع الفني الخلاق والمؤثر، وليس فقط سرد متراكم للمعلومات، أو الحقائق⁸.

4.1 أهمية الفيلم الوثائقي: إنَّ الفيلم الوثائقي هو علم بالدرجة الأولى قبل أن يكون

مجرد فنّ وإبداع فكري، ويبرز ذلك جلياً من خلال النفع الذي يعود به من الناحية الشخصية والعلمية على الأفراد، كونه وسيلة تأثير تربوي في الجمهور المستهدف، فهو يعتبر أداة للاتصال والتفاهم بين الأشخاص على مختلف أجناسهم، ليلعب بذلك دور الشاشة العالمية صوتاً وصورة، فالفيلم الوثائقي يملك قوة التأثير والانتشار الجماهيري، يرجع إلى ثرائه التعبيري، وسهولة إدراكه من قبل المتلقي لأنّه يعتمد على الواقع⁹.

إن الأفلام الوثائقية جزء من وسائل الإعلام التي لا تساعدنا فقط على فهم عالمنا، ولكن على استيعاب دورنا فيه، والتي تشكّلنا بوصفها وسيلة اتصال جماهيرية، بمعنى الفيلم الوثائقي عبارة عن سلسلة ثقافية، يحمل في جوهر مادته العامل المؤثر القادر على تغيير القيم الفكرية والأخلاقية التي تحكم سير ركب مجتمع ما، وهذا ما أكدّه ريتشارد أوفرها يدي في قوله: "إن الأفلام الوثائقية أداة تواصل مهمة في تشكيل الواقع، ... فهي تجذب وترفه عن المشاهد"¹⁰.

ومن بين أهم النقاط التي أدرجها هي المساهمة الفعالة لجنس العمل الوثائقي في تحسين الذوق العام للمشاهد عن طريق تقديم المعلومة الجيدة والجديدة، وبناء ثقافة تتماشى ومتطلبات العصر، بالإضافة إلى إحياءه وعي الأمة المعبر عن الهوية والقيم والأخلاق والثقافة وذلك باستذكار محتوى التاريخ القديم وربطه بالحديث وإعطاءه نظرة على المستقبل قصد نشر العادات والتقاليد والأفكار بين مختلف الشعوب وتوعية المجتمعات¹¹.

5.1 أنواع الفيلم الوثائقي: هناك أنواع كثيرة من الأفلام الوثائقية تختلف في طبيعة

مضمونها ولكن قاسمها المشترك هي المعالجة الفنية للشكل والمضمون ويمكن تصنيف الأفلام الوثائقية على النحو التالي:

أ. **تصنيف الأفلام الوثائقية بحسب المضمون:** وهذا بأن يتناول الفيلم قضية معينة تصنف بأنها اجتماعية أو سياسية، دينية أو ثقافية فنية أو علمية، فمدار التصنيف هنا الموضوع، **فمثلاً:** إذا تناول فيلم ما قضية الفقر في مجتمع ما فهذا المضمون اجتماعي، ويمكن أن تجمع بين الفقر كأثر اجتماعي وتأثيره السياسي، فيكون فيلمك قد تناول في مضمونه الناحية الاجتماعية والسياسية.

ب. **تصنيف الأفلام الوثائقية بحسب المعالجة:** ويقصد بالمعالجة طريقة عرض الأفكار، وترتيبها ومناقشتها، بأي نمط يريد المخرج أن ينتج فيلمه، **مثلاً** إذا تناول فيلم وثائقي تعليمي الأثر السلبي للعبوات البلاستيكية على البيئة ويريد المخرج تثقف المشاهدين بخطورة رمي المخلفات في الأماكن العامة، فهنا معالجة الفيلم تقتضي شرح هذه المفاهيم خطوة خطوة، وتدعمها بالأبحاث غرس مفهوم تدوير النفايات كأحد الحلول، فهنا يأخذ الفيلم طابع المعالجة والنوعية.

وأهم أصناف الأفلام الوثائقية بحسب المعالجة: أفلام الاستكشاف المكاني، أفلام السرد التاريخي والسير الذاتية، أفلام المنجزات أو المشاريع العملاقة، أفلام الوقائع الحالية أو القضايا الساخنة، وأفلام علمية أو تعليمية أو توعوية أو تحسيسية.

ت. **تصنيف الأفلام الوثائقية بحسب البناء:** ويقصد به أن المخرج يصور المشاهد في الفيلم دون مقابلات أو حتى صوت المعلق، ويبني الفيلم ضمن سياق اللقطات والمشاهد، وأحيانا يكون المذيع أمام الشاشة ومرافقاً في الفيلم، ودوره هنا ليس التقديم بل قد يكون خبيراً في موضوع الفيلم فيضيف له قيمة مضمونية، مثاله أفلام BBC عن البيئة الطبيعية غالباً أنها تستعين بمقدمين خبراء في موضوعات الأفلام.

كما يمكنه أن يقوم بتقديم صورة عن المجتمعات العربية وحضارتها ومعالها ونشر إبداعاتها في الداخل والخارج، وزيادة على هذا، فهو عبارة عن رسالة إعلامية راقية تتميز بانفراد أسلوب تقديمها، وبذكائها في توصيل الرسالة إلى عقل المشاهد. إنَّ الفيلم الوثائقي ينبع من الحاجة لاكتشاف الواقع والتعرف عليه، ويكون أكثر وضوحاً من الناحية الموضوعية أو الشكلية، فهو يهدف إلى الكشف عن المعاني الكامنة به للتركيز عليها¹².

6.1 وظائف الفيلم الوثائقي: يتسم الفيلم الوثائقي بالعديد من الوظائف المهمة في

ميدان التعميم والإعلان والتسجيل التاريخي، وذلك من أجل تحقيق أهداف معينة، تتمثل في: **◀ الوظيفة الدعاية:** تعد الأفلام الوثائقية من الوسائل المهمة في مجال الدعاية وترويج المعلومات، ومن هذه الناحية يحقق الفيلم الوثائقي على المستوى الداخلي أهدافاً كثيرة تهدف السياسة الحكومية إلى نشرها بين صفوف الناس ويقوم بدور مهم في تجسيد دور الحكومة ومؤسسات الدولة وإبراز إنجازاتهم في مختلف المجالات، ومن ثم تكوين رأي عام مؤيد ومتعاطف مع أهداف الحكومة في هذه المشاريع.

أما على المستوى الخارجي أي الإعلام الدولي، حيث أن الأفلام الوثائقية تصل إلى أنحاء العالم كافة والسبب يعود إلى كون الأفلام الوثائقية تعتمد بشكل أساسي على الصوت والصورة وعرض الواقع، والصورة أصبحت لغة عالمية تعطي الفيلم الوثائقي إمكانيات كبيرة في إيصال تلك الرسالة لذا يستخدم الفيلم الوثائقي في الدعاية السياسية والاقتصادية والسياسية¹³.

◀ الوظيفة التعليمية: تستخدم الأفلام الوثائقية استخداماً فعالاً في مؤسسات التربية

والتعليم، إذ تستخدم في مجال تعليم الطلبة وتزويدهم بكثير من المهارات والمعارف الجديدة وتساهم في إثراء المعلومات وتفسير المسائل المعقدة وإيضاحها وقد تستخدم الأفلام الوثائقية

كوسائل إيضاح في الفصول الدراسية في المدارس والمعاهد والجامعات، وتستخدم في تعليم المهارات الفنية والحرفية في العديد من المجالات الأخرى¹⁴.

إن تقنيات التصوير في الفيلم الوثائقي تمنح الفيلم قدرات تعليمية هائلة قد لا تستطيع أي وسيلة أخرى من تقديمها مثل تحويل الزمن في الأفلام أي التصوير بسرعة عالية حيث ينتج حركة بطيئة على الشاشة، وهذه الإمكانيات تساهم في تعليم المتلقي، وبهذا تكون الأفلام الوثائقية من أهم الرسائل التي تقوم بنشر العلم والمعرفة في أوساط المجتمع¹⁵.

◀ **وظيفة التسجيل والتوثيق:** تعد وظيفة التسجيل والتوثيق من الأمور الهامة ولهذا تعد هذه الوظيفة جزءاً من عملية التوثيق والتسجيل الإعلامي، إذ تستخدم الأفلام الوثائقية في تسجيل الأحداث والوقائع وتوثيقها من البيئة الاجتماعية السياسية والثقافية واستخدامها كوثيقة تاريخية تسجل مولد الحدث، حيث تساهم هذه الوظيفة في نقل التجارب والخبرات ووضع التراث والمحافظة على التاريخ وتوثيقه في الماضي ونقله إلى الحاضر.

والتوثيق عبارة عن جمع المعرفة المسجلة وتوفيرها وبثها، على أن تتعامل هذه المعرفة بطريقة شاملة وإجراءات متكاملة مع الاستعانة بالوسائل الآلية وبأساليب التصوير العادي أو المصغر (الميكروفيلم) وذلك حتى تنال المعلومات الوثائقية أكبر قدر من الاستخدام "الإتاحة"¹⁶.

وتعد وظيفة التسجيل والتوثيق من الأمور الهامة في عملية التوثيق والتسجيل الإعلامي وغالباً ما تكون هذه العملية من أولويات اهتمام المؤسسات الحكومية التي تهتم ببحوث التاريخ وتوفير الوثائق التاريخية للبحث ووضعها أمام الباحثين، إذ تحفظ هذه الوثائق مثل الأوراق الرسمية والوثائق المكتوبة وأفلام الفيديو وأشرطة الصوت، ففي أفلام الفيديو غالباً ما يصاحب بيان وصفي للمعلومات المتوفرة مع الفيلم وتستخدم في تسهيل مهمة تركيب الفيلم والتعليق عليه وشرحه¹⁷.

◀ **الوظيفة الإعلامية:** تعتبر من الوظائف المهمة في مجال الإعلام، فهدفها شرح المعلومات وتفسيرها، ومنح تعريف الإنسان بالبيئة المحاطة به، كما أن هذه الوظيفة تزود الناس بالمعلومات الجديدة تعود عليهم بالنفع في الحاضر والمستقبل، كما أننا تمنحهم فرصة إبداء رأي يوافق المشاريع التي تقوم بها الدولة في جميع المجالات: " فالأفلام أسلوب من أساليب الاتصال الجماهيري يقوم على تزويد الناس بالحقائق الثابتة والأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة... "18.

وتبرز أهمية الوظيفة الإعلامية للفيلم الوثائقي القصير المكثف الذي يحمل رسالة أو قضية كون أهميته تعادل مئات الساعات التلفزيونية الروائية في قدرته على الوصول بشكل سريع إلى الجمهور الآن، وطبعاً بسبب التطور الهائل في عصر الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي مثل "الفيسبوك" وغيرها أصبحت هذه الأفلام قادرة على تشكيل رأي عام لدى الجمهور وحشد أعداد من الناس بشكل متسارع وقوي، وبالتالي يصبح المحتوى الذي يطرحه الفيلم قضية الجمهور الذي يمثله.

7.1 معايير الفيلم الوثائقي: يخضع أي فيم مسجل إلى جملة من المعايير لكي يصنف في الخانة التي تحوي نوعه من جدول الأفلام، ونقصد بذلك مجموعة المؤشرات والمقاييس التي يعتمد عليها كعرفة مباشرة لانتماء هوية الفيلم، وباعتبار أن جنس العمل الوثائقي يعد فيلماً فهو أيضاً قابل لتطبيق تلك المعايير، وشروطها تتمثل في أن يتقيد بالموضوع الموثوق بشكل جيد، وأن يحتوي على أفكار جديدة و متميزة ذات قيم فكرية وحضارية، يطبعها أسلوب المستوى العلمي الراقى، مع إضفاء نوع من السرعة والإتقان على البحث فيما يخص الموضوع والصورة والصوت، وذلك لاستحواذ اهتمام المشاهد منذ البداية، ذلك بأن طول المدة يعتبر مضيعة للوقت كما أنه يقلل من عنصر وعامل التشويق في الفيلم المعروف.

إضافة إلى وجوب اختيار النص الجذاب لإثارة الانتباه عن طريق القديم والحديث، وهذا ليصل المشاهد لعمل حلقة وصل بين الماضي والحاضر وتحليلاته، كما أنه يعمل على تحريك انفعالات ومشاعر الناس عن طريق إضافة اللمسات الإنسانية على المادة العلمية أو التاريخية، وكل ذلك يستلزم التدعيم بالحقائق والتي تكون مدعمة في حد ذاتها بالصور أو المقابلة مع الباحث المختص أو بالوثائق المطلوبة لمعالجة الموضوع، وللعلم فإن نجاح أي إنتاج مرئي بشكل عام يجب أن يتوفر على المعايير الثلاثة: الإمتاع، الإقناع والإبداع¹⁹.

2. الفن والتاريخ: إن علاقة الفن بالتاريخ هي علاقة تكامل متبادل، فبقدر الاستفادة الفن من المادة التاريخية في طرح الأفكار والموضوعات المختلفة، كذلك يستفيد التاريخ من الأساليب والصور الفنية في تناول الأحداث والوقائع التاريخية، وتوظيفها جماهيريا، من خلال التعبير عن الهموم وحاجات الإنسان في المجتمع وربط الحاضر بالماضي لتشكيل حلقة مستمرة نحو المستقبل؛ لأن الفن لا يوجد من أجل مجموعة صغيرة مغلقة من القلة الممتعة بامتياز الثقافة، بل من أجل الأمة بأكملها وما يصح على أي حال بالنسبة للعمل الفني بصورة عامة ينطبق أيضا على الجانب الخارجي من الواقع التاريخ المطروح، كما يجب أن يوضح لنا وأن يكون سهل المنال بلا معرفة واسعة، بحيث نستطيع نحن المنتمي إلى عصرنا نحن وأمتنا أن نشعر بالانسجام فيه وألا يكون مضطرا إلى التوقف أمامنا كما لو كأننا أمام عالم غريب غامض²⁰.

واستطاع كبار المبدعين تأكيد هذه العلاقة ما بين الفن والتاريخ عبر أعمالهم المتميزة، وفي مقدمتهم يقف شكسبير الذي أثبت بجدارته أهمية المادة التاريخية في الفن، وكشف عن الطريق الصحيح في الاستفادة من التاريخ في العمل الفني عبر مسرحياته التاريخية المتميزة، فعندما يتناول شكسبير التاريخ "يحذف منه كل العناصر الوصفية والحكايات الصغيرة ويكاد يحذف القصة منه أنه التاريخ مقطرا نقيا من كل شائبة، ... وشكسبير لا "يمسرح" التاريخ بل "يمسرح" السيكولوجية ويعطينا شرائح كبيرة منها، وفيها نجد أنفسنا"²¹.

وهكذا أعاد شكسبير بكتابة التاريخ من وجهة نظر الفن الحياة إلى الشخصيات التاريخية التي تناولها عبر أعماله المختلفة لتعطي العبر والدروس للناس إضافة إلى إمتاعهم بهذه الأعمال الخالدة.

3. السينما والتاريخ: هناك عدة معادلات سينمائية لأحداث التاريخ، وهناك عدة

تواريخ للسينما، فالسينما وثيقة الصلة بالتاريخ منذ نشأتها إلى يومنا هذا، فولادتها كانت تتغذى من التاريخ ووقائعه وأحداثه ثم أصبحت بدورها تاريخاً يروى منذ أن ظهرت قبل قرن من الزمان، حيث أن " كل فيلم تاريخي يكون مجال وزمن أحداثه، الزمان الماضي بمختلف مراحلهِ وإغفال المواضيع التي تدور في الزمن الحاضر كأنه زمن جامد لن يكون فيما بعد ماضياً، أي كأنه لن يصبح تاريخاً بعد غوره داخل إدخال حركة الزمان التي لا تتوقف"²².

إن العامل المشترك بين هذين الحقلين - السينما والتاريخ - هو المجتمع فهذا الأخير هو الوعاء والحيز الذي يحويهما، وهو حيوي وضروري لكل منهما فلا تاريخ بدون مجتمع، ولا سينما بدون مجتمع المقصود هنا المجتمع بكل وجوده، وصوره المثبتة على الأشرطة السمعية البصرية، العلاقة بين الاثنين ليست علاقة تكافئية، لأن التاريخ موجود منذ فجر الإنسانية أو موجود قبلاً ومستقل بذاته، ويستطيع الاستمرار بدون السينما، أما العكس فليس صحيحاً، فلا يمكن للسينما أن توجد وتعيش بدون التاريخ بمفهومه الشمولي والعام؛ أي المفهوم الذي يحتوي بين طياته الأزمان الثلاثة: أولاً الماضي والحاضر والمستقبل.

بديهي أننا سنكتشف أن هناك قراءة سينمائية متميزة أحادية الرؤية خاصة، وذاتية وقصيرة للتاريخ لأنها قراءة مقتصرة على المرحلة الزمنية التي ولدت فيها السينما، وعاشت كوسيلة للتعبير ميزت هذا القرن الذي يتسم بحضارة الصورة، وبالمقابل هناك قراءة تاريخية للسينما تربط وجودها بأحداث التاريخ التي سجلتها هذه الأداة التعبيرية، وفي هذه الحالة ستكون السينما منظور إليها كمادة للدراسة بكل أنواعها سواء كانت تتعلق بالسينما الروائية - القصصية والوهمية- أو السينما الوثائقية التسجيلية،...²³.

منذ بداية ولادة الفن السينمائي تم تصوير كم هائل من الأفلام، والوثائق المصورة الخام التي أصبحت شكل اليوم أرشيفاً مذهلاً يستغله المؤرخون لتدوين وقائع التاريخ البشري خلال القرن الأخير، ومنذ ذلك الحين وحتى اليوم أصبحت علاقة الناس بماضيهم مرتبطة عضوياً بهذا الأرشيف الصوري أو المرئي أي أصبحت تلك الأشرطة المصورة هي الذاكرة الفيلمية للشعوب بشكل ما.

4. الأفلام الوثائقية التاريخية:

إن الفيلم الوثائقي يحتوي على كلمتين: فيلم ووثائقي فالمعجم يؤكد بأن الوثيقة تحتل: مثل، نموذج، عبرة، درس، أمثلة، مذهب، تظاهرة، ... ولا يمكن لنا قراءة التاريخ قراءة مرجعية دون اللجوء إلى المستندات الموثقة لأحداثه، بل لا يمكن تصور التاريخ بدون "وثائق"، ويعتبر البعض الوثيقة مرآة للتاريخ ويرى فيها البعض نبض حركة الجماعة أو الفرد في فترة تاريخية محددة، وكلمة "وثائقي" أصبحت مألوفة في الثلاثينيات واستعملت منذ 1926 كصفة ونعت.

ومجالات بحث الفيلم الوثائقي متنوعة ومتداخلة ومقاطعة وهناك عدة اتجاهات اتخذها الفيلم الوثائقي للخروج إلى الوجود، فلقد أدرك السينمائيون أن الفيلم الوثائقي هو مرآة داخلية ووعي وإحياء لضمير الإنسانية لمعرفة الأوجه الكثيرة والمتنوعة للحقيقة، كما لا يمكن للأفلام الروائية الخيالية (المصطنعة) أن تظهر هذه الحقيقة للمشاهدين.

ومن بين هذه المجالات نجد الأفلام الوثائقية التاريخية، وهي التي نتحدث عما جرى لبني البشر في الأزمان الماضية بكل أبعادها الحضارية، والسياسية، والدينية، والأسطورية، والاقتصادية، و... حيث يمكن تقسيم الماضي البشري -حسب المعطيات الوثائقية البصرية- كرونولوجيا إلى خمسة أقسام كما يلي: الماضي السحيق، الماضي الموهل في القدم، الماضي القديم (البعيد)، الماضي المتوسط، والماضي القريب: وهو الذي مازال متصلاً مع الحاضر من خلال الذين عاشوا أحداثه، وهم الآن شهود أحياء عليه، أي أن مجاله الزمني

يمتد حتى 100 عاما مضت، وهناك معيار إضافي لمفهوم الماضي القريب يتعلق باختراع التصوير الفوتوغرافي الذي نُوج بتصميم أول آلة تصوير عام 1839.

وضمن هذا المجال الذي اصطلحنا على تسميته بالماضي القريب تكون المادة البصرية للفيلم التسجيلي التلفزيوني الذي يتحدث عن إحدى الحربين العالميتين مثلا مستقاة من المصادر التالية:

■ الأرشيف السينمائي: حيث تم تصوير الكثير من وقائع الحروب، كالحرب العالمية الثانية مثلا.

■ أرشيف الصور الفوتوغرافية: التي تمثل الأمكنة، الأشخاص، الأحداث، والعمائر، وغيرها.

■ شهادات حية: للذين شاركوا في الحرب أو عايشوا أحداثها، وما زالوا على قيد الحياة.

■ تصوير بعض الأماكن الموجودة: والتي كان لها حضور قوي في تلك الأحداث، مثل ساحل النورماندي الذي شهد أكبر عملية إنزال قوات عسكرية في التاريخ، وعنده جرت أهم المعارك الفاصلة التي أدت إلى انتصار الحلفاء على ألمانيا النازية، وبالتالي نهاية الحرب العالمية الثانية²⁴.

5. السينما الوثائقية... متعة التاريخ المرئي:

لقد بدأت السينما تسجيلية؛ فكان تسجيل الواقع بداية لتجريب هذا الاختراع العظيم للصورة المتحركة، وقد كان الجمهور في حالة اندهاش أمام الصورة المتحركة الواقعية، في تصوير الواقع كما هو، ثم انتقلت للتوثيق بخلق تركيبة فنية لهدف ما، ثم جاء الفيلم الفني، استعارة من عالم المسرح ودور الممثل والحكاية الافتراضية الفنية في نطاق التأليف.

لم يكن الفيلم الوثائقي، عبر تاريخه، بريئاً من تشكيل الرأي العام، والترويج للأفكار، ومنها السياسية والأيدولوجية والدعائية بشكلٍ عام، وكانت ذروة هذه الاستخدامات، في إبان الحرب الباردة، وقبلها في وزارات الدعاية للدول المتصارعة، أميركا، الاتحاد السوفيتي، ودولة هتلر النازية والفاشية في إيطاليا²⁵.

ورث التلفزيون هذه الوظائف للصورة المتحركة، بأشكالها المختلفة، سواء كان الشكل تسجيلياً ووثائقياً أو ريبورتاجاً أو فيلماً فنياً، واعتمدت نشرات الأخبار في توثيق أخبارها ودعايتها ورؤيتها، على استلهاً طريقة بناء الفيلم الوثائقي والتسجيلي، وطريقة التوليف والخداع والتضليل، لتعبئة الجماهير نحو موقف ما، موقف قد لا يمت للحقيقة بصلة، كما اعتمد الفيلم الوثائقي على التطور الإعلامي "الصحفي" في استخداماته، فهو مركب من التسجيل والريبورتاج والمقابلات، واستخدام البحث الاستقصائي، وغيرها.

استفاد الفيلم الوثائقي كثيراً من الفيلم الفني (الروائي)، من مركباته الجمالية في تكوين الصورة، وأهم من ذلك أنه استفاد من استخدامات الدراما، من تشويق وخلق عقدة الفيلم وذروته، وقد دخل التمثيل -من خلال تركيب الفيلم الوثائقي- للتعبير عن حدث يستحيل تصويره، كحدث وقع في الماضي، وكأفلام الاستقصاء عن حالة ما، تعتمد على التحقيق البوليسي، أو ما شابه ذلك، وأطلق على هذا النوع من الأفلام فنياً (ديكودراما)، حتى إن بعض الأفلام الفنية الروائية قد استخدمت بعض المقاطع من الأفلام الوثائقية والتسجيلية، والأمثلة على ذلك كثيرة، واستفاد الفيلم الوثائقي -أيضاً- من تسجيل الحدث بكاميرات مخفية، كطريقة للحصول على الحقيقة²⁶.

لكن على الرغم أن الأفلام الوثائقية هي الأصل ومبتدأ السينما، فإن الغلبة في السباق بين الأفلام الوثائقية والروائية كانت على المستوى الجماهيري لصالح الأفلام الروائية، التي ظلت الزاد والوقود الأساس لمحركات صناعة السينما، ومع ذلك وبالرغم من كل الامتيازات التي كانت ولازالت تتمتع بها السينما الروائية سواء من حيث التمويل أو من حيث الانتشار

الجماهيري، بل والقدرة على التأثير في حياة وأفكار وعادات عشاق الأفلام، إلا أن طموحها ظل هو الوصول إلى صيغة تصوير لمواضيع الأفلام بحيث تكون ذات مصداقية تيمنا بالسينما الوثائقية التي يعتبرها المدافعون عنها جوهر السينما الحقيقية التي تعكس الواقع بموضوعية²⁷.

ولكن مع ذلك يبقى الفيلم الوثائقي هو المعبر عن واقع معاش وعن حقيقة معاشة مصورة أنيا أو ممثلة (إعادة تمثيل الواقع) مع تحاليل وشهادات لشخصيات مختصة في الموضوع أو معاصرة للشخصية أو الموضوع المتكلم عنه في الفيلم.

6. الفيلم الوثائقي بين القيمة الإخبارية والحس الفني:

يعدّ كثير من الباحثين والناقدین في مجال الأفلام أن تسابق القنوات لإنتاج الأفلام الوثائقية التلفزيونية أدى إلى تميعها، فلم تعد أفلاما وثائقية حقيقية بقدر ما هي مجرد أفلام ذات قوالب فنية ضعيفة لا تختلف عن التقارير الإخبارية إلا في طول المدة، وقد عزز من ذلك اهتمام القنوات بالأفلام ذات الطابع الإخباري، أي التي تلاحق أحداثا معينة لتتناولها بشكل أوسع ضمن تغطيتها لهذه الأحداث، وطبعا كجزء من إكمال دوراتها البرمجية والتنويع وكسر الجمود الذي يلف طبيعتها الإخبارية.

وهكذا تهافت المنتجون على تقديم هذا النوع السهل من الأفلام دون الانتباه إن كانت تحوي جميع عناصر الفيلم الوثائقي إلى جانب الفن والإبداع، مما أدى إلى إفراغ هذه الأفلام من محتواها الفني وتسطيحها حتى وإن كان فيها الكثير من الجماليات البصرية المنفردة، والتي صار تنفيذها سهلا في عصر الرقمية وتطور الكاميرات والمونتاج، لكنها تفتقد إلى بناء بصري وموضوعي، وأيضا إلى تشكيل العلاقات والروابط داخل الفيلم.

ومما يحولّ الفيلم إلى مجرد تقرير إخباري هو تناول القصص كملفات عامة يتم النقاش حولها بالاعتماد على وجود شخصيات تتحدث حول الموضوع، يتخلل ذلك بعض اللقطات

لتعبئة الفراغات دون تشكيل للروابط الفنية بينها، لتبدو في النهاية أشبه بالكتاب الغني بالصور والوثائق²⁸.

في الأخير يمكن القول بأن الفيلم الوثائقي يحتمل قدرا كبيرا من الإبداع والخيال في شكل المعالجة وبدون أن يجتزئ من الحقيقة أو يغير فيها، فهو يكتسب أهميته من كيفية نقله للواقع وتقديمه للمعلومات.

اليوم، وبعد ما يزيد على قرن من الزمان على الممارسة الوثائقية، نستطيع القول إن التحديات أعلاه صحيحة كلها، وإن الفيلم الوثائقي يمكن له أن يتعامل في إطار فني مبلور وواضح مع الأشخاص الطبيعيين في حياتهم الطبيعية، وتسجيل الحياة كما هي، خلصة أو بوعي من المتصورين للفيلم، مع عدم استثناء استخدام الممثلين والمشاهد المبنية في حالات معينة، أو حتى استخدام أشكال تعبير سينمائية أخرى مثل الرسوم المتحركة، وذلك بهدف تصوير الواقع بشكل درامي، في فيلم ينقل آراء ويحمل رسالة.

خاتمة:

تنوع الفيلم الوثائقي، وأصبح له مدارس مختلفة، وكثير من الأسماء التي صنعت اسمًا لها في تاريخ السينما الوثائقية، فأصبح هناك الفيلم الوثائقي التاريخي، والعلمي، والحربي، وأفلام البحوث التي تدعم نظريات فكرية وتاريخية وعلمية، وأفلام الجغرافيا والحيوانات الوحشية، وأفلام تتحدث عن الفضاء وداخل المحيطات والبحار، والغابات، وسلسلة لا تنتهي من صنوف الحياة في هذا الكون، وأصبح الفيلم الوثائقي والتسجيلي جزءًا من التاريخ وأرشفته للمستقبل، وأصبح واقعًا موازيًا للواقع، سيرجع إليه الدارسون والباحثون، بعد آلاف السنين، وسوف يكون بديلاً عن الكتاب والورق على ما يبدو، ويصبح أكثر حقيقة، وأكثر إقناعًا وتأثيرًا.

وأصبح للفيلم الوثائقي دور مهم في عالم الفن من جهة، وفي عالم السياسة وبحور العلوم الأخرى، من جهة ثانية، وله أهمية تعليمية في شرح نظريات معقدة وضرورية، في الجامعات والمعاهد والمدارس.

قد نصنع الآن فيلمًا فنيًا روائيًا مدهشًا، يصبح بعد سنوات فيلمًا ساذجًا، لا جمهور له؛ لكن الفيلم الوثائقي يبقى خالدًا، ونستفيد منه عبر التاريخ، فالفيلم الوثائقي المحكم هو فيلمٌ عابرٌ للأزمان، تُحفظ قيمته المعلوماتية والرؤيوية، وتؤبد فيه الأمكنة والناس عبر التاريخ والحقب والتغيرات.

للفيلم الوثائقي -اليوم- محترفون مختصون، ودارسون أكاديميون، ومخرجون معتبرون، وله كذلك كتاب وباحثون مختصون في صناعته، وهو لا يحتاج إلى صناعة سينمائية معقدة، ولا يحتاج إلى احتكار فني ضخم مثل هوليوود، فمن الممكن أن تصنعه دولنا وبلداننا، ومن الممكن أن نتقنه، ونأخذ دورًا عالميًا في صناعته، لكنه يحتاج إلى فكر حر وصناعة إعلامية لترويجه ونشره، والاستفادة من قيمته العلمية والتاريخية والحياتية، وسيصبح، بل أصبح الفيلم الوثائقي حقيبة بحجم الكف، تحمل الأحداث والتاريخ والمعلومات، وسيصبح الحقيقة التاريخية الصادمة في المستقبل.

الهوامش:

- ¹ نهلة عبد الرزاق عبد الخالق رشيد، دراسة تحليل مضمون للأفلام التسجيلية الوثائقية في قناة الجزيرة الوثائقية الفضائية للمدة من 2011/04/01 ولغاية 2011/04/30، مجلة كلية الآداب، العدد 98، الجامعة المستنصرية، العراق، ص 413.
- ² جورج خليفي، الفيلم الوثائقي: دليل مقترح للتدريس في الجامعات والكليات الفلسطينية، مؤسسة هاينرش بول الألمانية، مركز تطوير الإعلام، جامعة بيرزيت، فلسطين، 2014، ص 05.
- ³ أيمن عبد الناصر نصار، إعداد البرامج الوثائقية، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2007، ص 14.
- ⁴ باتريشيا أوفرهايدي، الفيلم الوثائقي مقدمة صغيرة جداً، ترجمة: شيماء طه الريدي، كلمات عربية للترجمة والنشر، الطبعة الأولى، 2013، ص 13.
- ⁵ سلوى أحمد سعد الدين، نشأة وتطور الفيلم التسجيلي بنوعياته المختلفة، المدرسة العربية للسينما والتلفزيون، القاهرة، 2001، ص 34.
- ⁶ كاظم مرشد السلوم، سينما الواقع... دراسة تحليلية في السينما الوثائقية، مجلة أفكار للدراسات والنشر، بغداد، 2012، ص 102.
- ⁷ أيمن عبد الناصر نصار، إعداد البرامج الوثائقية، مرجع سابق، ص 16.
- ⁸ فورسيث هاردي، السينما الوثائقية عند غريرسون، ترجمة: صلاح التهامي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء، القاهرة، 1965، ص 36.
- ⁹ أيمن عبد الناصر نصار: إعداد البرامج الوثائقية، مرجع سابق، ص 66.
- ¹⁰ باتريشيا أوفرهايدي، الفيلم الوثائقي مقدمة صغيرة جداً، مرجع سابق، ص 12.
- ¹¹ أيمن عبد الناصر نصار، إعداد البرامج الوثائقية، مرجع سابق، ص 67.
- ¹² محمود سامي عطا الله، الفيلم التسجيلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1995، ص 14.
- ¹³ كرم شلبي، فن الكتابة للراديو والتلفزيون، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، 1992، ص 211.
- ¹⁴ محمود سامي عطا الله، الفيلم التسجيلي، مرجع سابق، ص 17.
- ¹⁵ كرم شلبي: فن الكتابة للراديو والتلفزيون، مرجع سابق، ص 212.
- ¹⁶ هلال ناتوت، التوثيق الإعلامي، دار النهضة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، 2009، ص 60.
- ¹⁷ محمد علي الفرجاني، فن الشريط التسجيلي، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ص 27.
- ¹⁸ محمود عبد العروف كامل: مقدمة في علم الإعلام والاتصال بالناس، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، 1995، ص 102-103.

- ¹⁹ أيمن عبد الناصر نصار، إعداد البرامج الوثائقية، مرجع سابق، ص 46.
- ²⁰ جورج لوكاش، الرواية والتاريخ، ترجمة: جواد صالح الكاظم، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1987، ص 63.
- ²¹ يان أوت، شكسبير معاصرنا، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1989، ص 62.
- ²² قاسم عبده قاسم: الرواية التاريخية العربية: زمن الازدهار، مجلة المستقبل، ثقافة وفنون، العدد 2723، 2010، ص 21.
- ²³ مومن السميحي، حديث السينما، سليكي إخوان، الجزء الأول، الطبعة الأولى، طنجة، 2005، ص 130.
- ²⁴ علي عزيز بلال، الفيلم التسجيلي التلفزيوني: من الفكرة إلى الشاشة، مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب، الطبعة الأولى، سوريا، 2013، ص 40-43 بتصرف.
- ²⁵ عاصم علي الجرادات: معالجة الأفلام التسجيلية للصراعات السياسية سلسلة (سري للغاية) في قناة الجزيرة "أمونجا، مذكرة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا، الأردن، 2009، ص 31.
- ²⁶ عدي عطا حمادي الياسين، أثر توظيف الحدث التاريخي في صياغة السيناريو وصناعة الفيلم، الطبعة الأولى، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، 2011، ص 76.
- ²⁷ قاسم حول، في السينما والتلفزيون: تأملات سينمائي، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، الطبعة الأولى، دمشق، 2008، ص 52.
- ²⁸ عبد الغني إرشن، رهانات الصورة الفيلمية الوثائقية في صراع الذاكرة بين الجزائر وفرنسا، مذكرة ماجستير غير منشورة، قسم علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، 2011، ص 123.